اختلاف المبرد مع سيبويه

لم يستهل القرن الثالث حتى كان كتاب سيبويه موضوع درس وبحث ، ومحل نقد وتمحيص ، بما تلاحق عليه طيلة القرن الثاني من عناية علماء العربية : البصريين والكوفيين ، على السواء . ففي حين اتخذه البصريون اماماً لهم وحجة ، يتعصبون له ، وينصرونه ، ويستدلون لقواعده ، ويفصلون علله ، فعل الأخفش الأوسط والجرمي والمازني ، [1] كان الكوفيون محتفلين بالكتاب ، يدرسونه ، ويستكشفون مذاهبه ، ويقلبون مناحي أدلته ، ليتبينوا — في تعصبهم عليه — ما اختلف فيه طريقه عن طريقهم : صوغاً للقواعد ، وتحريراً للأدلة ، حتى يمهدوا بذلك مسلك الانتصار لمذهبهم بالرد على سيبويه ، ومعارضته ، فعل الكسائي والفراء وثعلب [2] . فتكونت لكتاب سيبويه ، من صنيع هؤلاء وهؤلاء ، هالة من التعاليق والشروح والبحوث والردود ، كانت ثروة للدارسين ، ومادة للمصنفين .

وعلى تكامل هذه الثروة ، وتوافر تلك المادة ، نشأ أبو العباس المبرد ، أوائل القرن الثالث بالبصرة ، ثم دخل الى بغداد . فكانت نشأته بالبصرة على كتاب سيبويه ، وصلته بالبصريين أنصار سيبويه ورواة كتابه : من الزيادي والرياشي [3] واضرابهما ، ثم رحلته الى بغداد ، وصلته بالبصريين ، من رواة كتاب سيبويه أيضاً ودارسيه ، مثل الجرمي والمازني ، وبالكوفيين

---

(١) كتاب أخبار النحويين للسيرافي ص ٥٠ و ٧٢ و ١٠١ ط كرنكو .

(٢) ص ٥١ سيرافي وبغية الوعاة (ترجمة الفراء يحيى) والتعريف بكتاب سيبويه في نسخة الرياحي ص XXIV ٢٤ الطبعة الباريسية .

(٣) ص ١٩ وما بعدها سيرافي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المتبعين لأخطائه المتعصبين عليه ، مثل ثعلب [١] ، قد مكنت له أسباب الإحاطة بما كان حول « الكتاب » من تعاليق مفصلة ، من كلام المادحين والقادحين .

فكان المبرد ، من جهة ، عظيم الإكبار لسيبويه وكتابه ، تام القيام عليه ، حريصاً على روايته وضبطه ، وكان ، من جهة أخرى ، مدركاً مآخذ فيه ومغامز ، بدا بعضها من ردود كوفية لم يجد لها مدافع ، مثل ردود الفراء ، وبعضها من نقود بصرية وجد من نفسه اقتناعاً باتجاهها ، مثل نكت كانت للزيادي [٢] ، ومخالفات المازني ، أو للجرمي ، أو للأخفش نفسه ، وهو راوي الكتاب ومبلغه للأجيال [٣] ، وفيه يقول الكسائي مستخفاً بالبصريين : إن الأخفش نبههم على عوار الكتاب وتركهم [٤] . من هذا يتبين أن ما كان مجتمعاً في نفس المبرد : من اكبار لكتاب سيبويه ، واقتناع بنقود ومخالفات معلقة عليه ، من شأنه أن يجعله شديد الاحتفال بتلك النقود ، عظيم الحرص على تتبعها ، وعلى استنباط نقود مثلها ، ليقينه بأن ادراك غور سيبويه ، والتمكن من الانتقاد عليه أمر لا يتاح الا لعظيم .

بهذا برز أبو العباس المبرد بين علماء العربية في بغداد ، فكان بصرياً متعصباً للبصريين ، معدوداً عليهم ، خصماً للكوفيين ، مبغوضاً منهم ، يتمثل النزاع المستحكم بين البصريين والكوفيين في ما بينه وبين أبي العباس ثعلب من تنافس وشنآن [٥] .

---

(١) ١٠٢ سيرافي .

(٢) ٨٨ سيرافي .

(٣) يوجد كثير من هذه المخالفات في كتاب الإنصاف لابن الأنباري وفي الطرر التي على النسخ القديمة من كتاب سيبويه ، مثل النسخة الزيتونية التي يأتي الكلام عليها .

(٤) مراتب النحويين لأبي الطيب ط ابو الفضل .

(٥) ١٠٢ سيرافي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على أنه كان ينتهج نهج الزيادي والرياشي والجرمي والمازني ، في الانفراد عن جمهور البصريين بمقالات في مسائل ، لم تكن لتخرجه عن بصريته ، ولا لترفع ما بينه وبين الكوفيين من إحن ، كما لم يخرج أبو يوسف ولا ابن القاسم ولا المزني عن كونه حنفياً أو مالكياً أو شافعياً لمقالات خالف فيها جمهور أهل مذهبه .

فالمنهج النحوي الذي تكون في بغداد ، في القرن الثالث ، هو منهج لم يمتزج فيه المذهبان : الكوفي والبصري ، ولا تكوّن منه مذهب جديد مستقل ، بل لم يكن إلا اتصالاً وتلاقياً بين الواجهتين : الكوفية والبصرية ، عرف به أهل كل من المذهبين مقالات المذهب الآخر بصورة أتم وأوضح ، واقترن ذلك بانفراد رجال من الكوفيين أو من البصريين بمقالات خالفوا بها أئمة مصرهم ، ووافقت أقوالاً لأئمة المصر الآخر ، بدون أن تخرج واحداً منهم عن عصبية مصره ، وتلحقه بالعصبية الأخرى ؛ وإننا لنجد برهان ذلك جلياً في مسائل الخلاف التي أوردها ابو البركات الأنباري في كتابه « الإنصاف » حيث يذكر مذهب الكوفيين ويقول : ووافقهم المازني أو المبرد من البصريين ، ويذكر البصريين ويقول : ووافقهم الفراء أو ثعلب من الكوفيين .

كذلك كان وضع علم النحو في بغداد في القرن الثالث : مذهبان يتناظران ويتجادلان وينفرد عن كل من المذهبين أحد أتباعه في مسائل بدون أن يخرج عن أصول مذهبه . وكذلك نرى أن أثر هذا في القرن الرابع ، الموالي ، يؤيد ما يذهب اليه صديقنا العزيز الدكتور مازن المبارك (١) من أن علماء بغداد بسطوا المذهبين ، واختاروا منهما ، وأنه إذا كان لبعض هؤلاء العلماء أقوال تفردوا بها من دون المذهبين ، فإن ذلك لا يعني قيام مذهب

(١) ص ٣٤ كتاب الرماني النحوي ط الجامعة دمشق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جديد ، ولا يعني نشوء مدرسة بغدادية . وإذا كنا نذهب مع الدكتور الصديق مذهبه في عدم اندماج المدرستين البصرية والكوفية ، حتى في القرن الرابع ، قرن ابن كيسان ومن بعده ممن قال فيهم السيرافي انهم يخلطون المذهبين ، فإن القول الثالث ، الذي هو موضوعنا ، أجدر بذلك المعنى من القرن الذي والاه ، ما دامت العصبيتان : البصرية والكوفية ، جليتين في مثل المبرد وثعلب ، وان خالف كل منهما مقالات للبصريين أو للكوفيين . وعلى ذلك نتصور أن أبا العباس المبرد قد كان ، في نظر طلاب العربية وعلمائها في بغداد ، بصرياً ، له على مذهب أسلافه ، وعلى كتاب إمامهم : سيبويه انتقادات ومآخذ لا تخرجه عن كونه بصريا ، ولا تبعد به عن أن يكون كتاب سيبويه عنده هو « الكتاب » كما هو عند البصريين جميعهم ، أو هو « البحر » كما كان يقول ابو العباس لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه[١] .

كان أبو العباس يتيه بكتاب سيبويه ، وبضبطه له ، وقيامه عليه . قرأه على الجرمي والمازني[٢] وقرأه المازني على الأخفش وهو الذي رواه عن سيبويه[٣] .

وكان المبرد قد كتب الكتاب بخط يده وضبطه[٤] فكان يعتز بذلك الأصل الذي كتبه ولا يمكن منه أحدا ، ويضن به ضنة شديدة . وان جميع النسخ المعتمدة ، المنسوبة ، التي تعرف اليوم من كتاب سيبويه ، راجعة الى نسخة المبرد (في الزيتونة وباريس والاسكوريال والروسيا) .

ومن شديد اعتنائه بكتاب سيبويه : أنه خدمه بكتب كثيرة ، ذكرها ياقوت في المعجم ، منها : المدخل لكتاب سيبويه ، ومنها شرح شواهده ،

(١) سيرافي ص ٥٠ .
(٢) ١٠١ سيرافي وارشاد الأريب لياقوت (ترجمة محمد بن يزيد المبرد) .
(٣) ٥٠ سيرافي .
(٤) ياقوت ومقدمة الطبعة الباريسية XXVI.VI .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومنها كتاب الزيادة المنتزعة من كتاب سيبويه ، ومنها معنى كتاب سيبويه ، مما يوجب أن يكون معدوداً في شراح الكتاب في القرن الثالث ، ويقتضي ادماجه في الجريدة التي رتبها الدكتور مازن المبارك [1] بعد المازني وقبل الأخفش الأصغر .

وإلى ذلك كله كان المبرد مشهوراً بالاختلاف عن سيبويه : في مسائل كثيرة ، فرعت لها الظنابيب منذ القرن الثالث . فالسيرافي ، في شرحه على كتاب سيبويه ، ذكر مسائل عديدة ، خالف فيها المبرد سيبويه وخطأه تخطئة : منها قوله أن علامات الاضمار كلها مبهمة ، خلافاً لسيبويه إذ قسم الأسماء المضمرة إلى مبهمة وغير مبهمة (ص ٢٥٦ ج ١ هامش الكتاب ط بولاق) ومنها تخطئته سيبويه في اعراب « خزا » حالا من « هذه جبتك خزا » وقوله إنما هو تمييز (٢٧٤ ، ١) ومنها اختياره النصب في مثل « يا زيد والرجل » خلافاً لاختيار سيبويه ـ تبعاً للخليل ـ الرفع (٣٠٥ ج ١) ومنها جعله « سراويل » جمعاً خلافاً لسيبويه في اعتباره مفرداً (١٦ ، ٢) ومنها ادعاؤه أن سدوس اسم امرأة و « قغليطه » سيبويه في جعله اسم رجل (٢٦ ، ٢) ومنها « تخطئة » سيبويه في عدل قرقار وعرعار واعتبارهما حكاية صوت (٤٠ ، ٢) ومنها اعتباره التنوين في « جوار » اسم رجل تنوين عوض لا كما اعتبره سيبويه ـ تبعاً للخليل ـ تنوين تمكن (٥٧ ، ٢) ومنها قوله ان تصغير ابراهيم واسماعيل : ابيريه واسيميع ورده على سيبويه في القول بتصغيرهما على بريهم وسميعيل (١٢٠ ، ٢) .

وأبو البركات ابن الأنباري في كتاب « الانصاف » أورد مسائل كثيرة خالف فيها المبرد اجماع البصريين أو قول جمهورهم ، موافقاً الكوفيين [2]

---

(١) الرماني ١٣٤ .

(٢) كتاب الإنصاف لابن الأنباري ط ليدن المسألة ٦٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أو متوسطاً بين الطائفتين (١) أو منفرداً بقول دون الطائفتين معاً (٢) .

وأبو الفتح ابن جني ، في الخصائص (٣) أشار إلى ما كان أبو العباس يتبع به كلام سيبويه ، وسماه « مسائل الغلط » وحدث عن أبي علي الفارسي عن أبي بكر ابن السراج أن المبرد رجع فيه وكان يعتذر عنه .

والمبرد نفسه ، في كتاب الكامل ـ على قلة مايهتم بمسائل النحو ـ أورد كلام سيبويه في معرض الرد والتغليط غير مرة : فمن ذلك قوله في تفسير أبيات وردت أثناء أخبار الخوارج : « سيبويه يزعم أن لولا تخفض المضمر ويرتفع بعدها الظاهر بالابتداء . . . . فيقال له الضمير في موضع ظاهره فكيف يكون مختلفاً .... قال أبو العباس والذي أقوله ان هذا خطأ » (٤) .

وفي قول زهير :

وإن أتاه خليل يوم مسغبة يقول لا غائب مالي ولا حرم

قال : « فسيبويه يذهب إلى أنه على التقديم والتأخير وهو عندي على إرادة الفاء » (٥) كما شاع ، في كتب النحو المتداولة ، ذكر خلاف المبرد لسيبويه بموافقة الكوفيين أحياناً : كما في مسألة تقديم خبر ليس (٦) أو خلافاً للجميع : كما في مسألة بدل الغلط (٧) .

---

(١) المسألة ٣٧ .
(٢) المسألة ٢٤
(٣) ص ٢١٣ ج ١ ط الهلال .
(٤) الكامل ج ١ ص ٢٠٨ ط الخيرية بمصر .
(٥) ص ١٧٨ ج ١ .
(٦) الأشموني ج ١ ص ٣٣٩ هامش الصبان ط الوهبية .
(٧) الأشموني ص ٢٠٩ ج ٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فإذا بان أن المبرد كثير الخلاف لسيبويه ، شديد الاحتفال بإيراد مخالفاته له في القواعد وفي التخاريج ، وأن شراح الكتاب ، ومصنفي الخلاف ، وعلماء النحو ، أوردوا من ذلك كثيراً ، فهل لهذا الخلاف مادة يغترف منها ، ونصاب يرجع إليه ؟ إن ياقوتاً ، في معجم الأدباء ، عند ترجمة المبرد ، هو الذي يفيدنا أن مادة خاصة بهذا الاختلاف هي المصدر الأصلي لما ينقل المؤلفون منه . وهي كتاب من وضع المبرد سماه « كتاب الرد على سيبويه » وإن كان السيرافي لم يذكر هذا الكتاب في ترجمة المبرد ، مع أنه نقل في شرحه لكتاب سيبويه كثيراً من تلك الاختلافات . واطرد ذكر هذا الكتاب ، بعد ياقوت عند الذين ذكروا كتب المبرد ويتصل خبر هذا الكتاب بأخبار صلة المبرد بابن ولاد .

وذلك ان بيت علم ، في مصر ، كانت سلسلة مجده تنتظم أربعة رجال هم :

ولاد أو الوليد بن محمد التميمي المتوفى سنة ٢٣٠
ابنه ابو الحسين محمد المتوفى سنة ٢٩٨
ابن الابن أبو العباس احمد المتوفى سنة ٣٠٢

} ترجم ثلاثتهم في معجم ياقوت وفي بغية الوعاة

ابن الابن أيضاً أبو القاسم ابن ابي الحسين لم نقف على ترجمته ، وورد ذكره في سند رواية كتاب سيبويه عن والده عن المبرد من طريق محمد بن يحيى الرباحي الأندلسي .

فكان ثاني الثلاثة : أبو الحسين محمد ابن ولاد ، رحل من مصر الى العراق وأخذ عن المبرد[1] . وكان المبرد لا يمكن أحداً من نسخ كتاب سيبويه من عنده فكلم ابن ولاد المبرد في نسخه على شيء سماه له ، فأجابه ، فأكمل نسخه ، وأبى أن يعطيه شيئاً حتى يقرأه ، فغضب المبرد ، وسعى به الى بعض خدم السلطان ليعاقبه على ذلك ، فالتجأ ابن ولاد

(١) ياقوت ج ١٩ ص ١٠٦ ط دار المأمون مقدمة الطبعة الباريسية XXVI (٢٦) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى صاحب الخراج ببغداد ، وكان يؤدب ولده ، فأجابه ، ثم ألح على المبرد حتى أقرأه الكتاب . »[١]

وبرواية محمد بن ولاد عن المبرد نقل كتاب سيبويه ، من بعد ، في مصر : من طريقَي نقله : ١) طريق ابن النحاس عن أبي اسحاق الزجاج عن المبرد ، ٢) طريق أبي القاسم ابن ولاد عن أبيه أبي الحسين عن المبرد ، وجمع الطريقين بالرواية عنهما محمد بن يحيى الرباحي[٢] الذي ترجع اليه روايات الكتاب بالأندلس ، حسب النسخ الأندلسية الأصلية من كتاب سيبويه التي بالزيتونة ، وهي عن نسخة ابن خروف عن أصل الرباحي ، والتي بالاسكوريال ، وهي نسخة حسن بن أحمد بن علي بن يبقى عن نسخة أبي نصر هارون بن موسى المقروءة على الرباحي[٣] .

فيكون الثاني من الأربعة ، محمد بن ولاد ، هو الذي قرأ الكتاب على المبرد وقابله بأصله ، ويكون الرابع ، أبو القاسم ، هو الذي قرىء عليه الكتاب بمصر على نحو ما قرأه هو على أبيه .

ويبقى لنا مع الثالث ، وهو أبو العباس شأن في ما يرجع الى رد المبرد على سيبويه : فقد ذكر الذين ترجموا لأبي العباس أحمد بن ولاد أنه تلميذ أبي اسحق الزجاج ، سافر للطلب عليه في بغداد ونوهوا ببراعته في النحو — على عكس ما غضوا من منزلة أبيه — ولم يذكروا له قراءة ولا رواية[٤] ، فيظهر انه كان بالنظر والدراية أشد اعتناء ، بخلاف أخيه أبي القاسم ، وذكروا له من تآليفه « كتاب الانتصار لسيبويه في ما ذكره المبرد » أو « انتصار سيبويه على المبرد » .

---

(١) ياقوت ومقدمة الطبعة الباريسية وبينهما اختلاف في تفصيل القصة .
(٢) انظر ترجمته في بغية الوعاة .
(٣) مقدمة الطبعة الباريسية .
(٤) ياقوت وبغية الوعاة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولم نقف على عين ولا أثر للكتابين : كتاب المبرد في الرد على سيبويه ، وكتاب ابن ولاد في الانتصار لسيبويه ، الا في ما ظفرنا من كنز خفي في النسخة الزيتونية من كتاب سيبويه . وهي أصل عظيم من أصول نسخ الكتاب ، فاتت الأستاذ المستشرق درفبرغ الذي نشر كتاب سيبويه ، لذلك نرى أن نقدمها في جملتها قبل أن نذكر محل الحاجة منها لموضوعنا .

هي نسخة أندلسية بديعة الخط ، أصيلة التحقيق والضبط ، مكتوبة بخط عالم من أعيان علماء العربية ، هو ابن الحاج الأزدي الاشبيلي ثم التونسي ، وهو : أحمد بن محمد بن أحمد ابن الحاج ، من أصحاب أبي علي الشلوبين والدباج ، انتقل الى تونس ومات بهـا سنة ٦٤٧ أو سنة ٦٥١ ترجمه السيوطي في بغية الوعاة ، نقلاً عن البلغة للفيروزابادي ، وترجمه ابن رشيد في رحلته ملء العيبة [١] وكان صاحب تصانيف في النحو منها املاء على كتاب سيبويه .

وهذه النسخة كتبت سنة ٦٢٣ وتمت مقابلتها سنة ٦٢٤ وتمتاز بأمور ـ زيادة على صحتها وضبطها وبديع خطها واتقان مقابلتها ـ : فهي مكتوبة ومقابلة على نسخة أبي الحسن ابن خروف الاشبيلي شارح كتاب سيبويه المتوفى سنة ٦٠٦ [٢] التي كانت لشيخه أبي بكر محمد بن أحمد بن طاهر الخيدَب [٣] ثم آلت الى أبي علي الشلوبين ومن عنده نقل عنها صاحبنا ابن الحاج ، وقابل بها .

وقد اهتم ابن الحاج بتلخيص شرح شواهد الكتاب للاعلم [٤] وكتب

---

(١) مخطوط الأسكوريال .
(٢) البغية .
(٣) البغية .
(٤) طبع بذيل الكتاب ببولاق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ذلك في مقابلة كل شاهد : على الهوامش وبين السطور وقال في آخرها : « قال ناسخ هذا الكتاب لنفسه أحمد بن الحاج كتبت في حواشي كتابي هذا تأليف أبي الحاج يوسف بن سليمان الشنتمري المشهور بالاعلم على الأبيات ، وهو الذي سماه تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب ، وتحريت في ذلك حذف ما لا يخل حذفه من تفسير لا يضطر اليه ولا يقف تفهم البيت عليه أو كلام في وجه الاستشهاد بالبيت هو باد من كلام سيبويه غير محتاج الى بسط ولا زيادة بيان ، وما عدا ذلك نقلته على حسب ما وجدته في النسخة التي نقلت من أصل المؤلف وقوبلت بحضرته وهي التي أقامها هو لأبي بكر بن زيدون رحمهما الله ، فربما نقلت كلامه نقلا فأثبت لفظه وربما حذفت التطويل وآثرت الإيجاز فنقلته بلفظي على حسب فهمي ؛ وكل ذلك بحسب ضيق هذه الحواشي في بعض المواضع وبحسب السآمة والنشاط ، فإن وقع الناظر فيها على سهو وغلط فلا ينسبنه لأبي الحجاج رحمة الله عليه حتى يتبين أن ذلك لفظه ويحقق أنه قاله أو ما في معناه ، وعلى الجملة فانما عملته لنفسي وبقصد أن يحضرني مع كتابي هذا والله المسدد سبحانه لا رب غيره .

وقد ألصيقت فوق ظهر الورقه الأولى من هذه النسخة ورقة حديثة : كتب بها وقف الكتاب على خزانة جامع الزيتونة الأعظم من المشير أحمد باشا الحسيني سنة ١٢٥٦ ، وكان والدي ـ حفظه الله وأبقاه ـ قد اهتم بقراءة ما يبدو تحت الورقة الملصقة ، فتبين أنها تبتديء بأربعة أسطر فيها حديث أخذ ابن ولاد الكتاب عن المبرد ، على ما مر عن ياقوت وكما هو مثبت في نسخة الاسكوريال .

وأعجب من ذلك كله أن سياق كلام سيبويه ، في العشرين ورقة الأولى من الكتاب ، التي تقابل الثانية والثانين صفحة الأولى من الكتاب في طبعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

باريس ، تتخلله تعاليق بالرد والاستظهار وتأويل التخريج معزوة الى شراح الكتاب : الأخفش والمازني والجرمي والمبرد والزجاج ، يعقب بحكاية قول القائل على كلام سيبويه ثم يكتب « رجع » ويعاود كلام سيبويه . وقد انقطع هذا من الورقة العشرين فأصبح الكلام بعدها خالصاً لكتاب سيبويه مطابقاً لعموم نسخ الكتاب بدون زيادة ، كما هو في الطبعة الباريسية والطبعة البولاقية ، إلا كلمة واحدة هي تفسير وجيز عن أبي الحسن في باب ما ينصرف وما لا ينصرف . فالأظهر أن هذه المدرجات كانت حواشي في بعض الأصول فأدرجت عن قصد بدليل ابتدائها بمثل « قال أبو الحسن » وانتهائها بكلمة « رجع » ؛ ويقرب هذا ما أفاده درنبرغ في مقدمة الطبعة الباريسية : من أن النسخة الغزنوية التي كانت بين يديه ، وهي نسخة سان بطرسبرغ من البلاد الروسية . تشتمل أحياناً على كلام شراح الكتاب مدرج في الصلب ، وعلى ابتدائه علامة « لا » وعلى انتهائه علامة « الى » وقد أورد درنبرغ نصوص تلك الزيادات في تعليقه على نص الكتاب في الطبعة الباريسية ، فاذا هي التي في النسخة الزيتونية ، مطابقة لبعضها مطابقة تامة ، الا ان زيادات النسخة الغزنوية تستمر ، الفينة بعد الفينة ، الى آخر الكتاب ، ولا تنقطع كما تنقطع زيادات النسخة الزيتونية ، ولعل ذلك راجع الى أن النسخة التي نقلت النسخة الزيتونية عنها كانت مؤلفة من أجزاء كما أفاد ذلك ناسخها ابن الحاج ، عند ذكر المقابلة في آخر النسخة ، فيكون بعض الأجزاء أدرجت فيه الشروح فأدرجها ، والبعض بقيت فيه على الهوامش فتركها لأن هوامش نسخته كانت مشغولة بشرح الشواهد ، وإن كانت النفس لا تطمئن إلى هذا الفرض تمام الاطمئنان .

والأمر الأعظم من كل ما تقدم في شأن هذه النسخة العجيبة أنها مذيلة بتلخيص لردود المبرد على سيبويه ، وانتصار ابن ولاد لسيبويه على المبرد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهذا التلخيص مكتوب بخط ابن الحاج ناسخ الكتاب ، كتابة دقيقة جدا ، ضيقة ، متراكمة ، ليست كالتي نسخ بها الكتاب ، تملأ فيها الكتابة كامل الورقة ، من الطرف إلى الطرف فلا تبقي لها هوامش أصلا ، وتستغرق ، على هذا الضيق ، سبع صفحات أي ثلاث ورقات ونصف ورقة تقريبا . يضع في ابتداء الكلام علامة (مـ) ويذكر انتقاد المبرد ، ثم يضع علامة (وـ) فيذكر رد ابن ولاد ، ويختصر اسم سيبويه في كلام المبرد بعلامة (سـ) .

فكانت جملة ما أورده من المباحث مائة وخمسة عشر مبحثا ، في كل واحد منها كلام المبرد وكلام ابن ولاد في رده ؛ ويطول الكلام ويقصر باختلاف المسائل ، على أن الأطول باطراد انما هو كلام ابن ولاد . وقد تبرأ الكاتب من عهدة النقل ، فبين في آخر كلامه أنه لم يتحر النقل باللفظ ، ولا التزم الاستيعاب ، اذ ختم تلخيصه بهذه الجملة : « كمل الغرض من تلخيص رد المبرد على سيبويه وانتصار ابن ولاد له كتبـــه لنفسه وعلى قدر فهمه احمد بن الحاج وفقه الله » . فهو يصرح بأنه تلخيص ، وان ما أورده فيه هو ما تعلق فرضه بايراده ، بحيث ان لغرضه دخلا في الإثبات والحذف ، والنقل والترك ، وانه صاغ العبارات على مقتضى مقام « التلخيص » و « بحسب فهمه » غير منقح للعبارة ، ولا مراع للاحتياط في الايضاح ، أو في التحرير ، لأنه « كتبه لنفسه » .

ولا ندري هل هذا التلخيص ، الذي هو غرضه ، قد كان مشتملا على جميع البحوث وردودها ، بحيث لخص كل بحث باختصار عبارته وتحصيل معناه ، وذلك ما يتبادر من كلمة « التلخيص » أو انه ترك بعض البحوث التي لم يتعلق غرضه بتلخيصها فيصير التلخيص مراداً به معنى الاختصار تقريبا ؟

وأيا ما كان فان الذي أسداه الينا ابن الحاج يعطينا صورة من الكتابين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المفقودين ، كيفما تكون وافية ، فلن تكون كافية ، لأنها إن فُرض أنها لم تترك بحثاً دار بين الكتابين فانها لا محالة لم تورد الكلام بنصوصه التي ورد بها في أصل الكتابين .

على أن الذي لا يتتبع نص كلام سيبويه ، المعلق عليه ، حتى يُرجع كل فقرة إلى المحل المعلقة به ، لا يستطيع أن يبلغ من الفائدة في مطالعة الكلام مبلغاً ذا بال . لذلك أصبح العمل في استخراج هذه النقود والردود عملاً شاقاً ، لصعوبة قراءة النص ، بما في خطه من دقة وخفاء ، وفي مداده من انطماس ، وعلى ما أصابه في مواضع من محو أو بتر ، ثم للزوم العود بكل بحث إلى محله من كلام سيبويه في الكتاب ، أو ما نقل عن المبرد ، في الشروح أو غيرها من الكتب ، ليتبين بذلك من المعنى ما يعين على فك الخط الحائل أو المطموس . وذلك ما أنا بصدد معاناته ، الآن ، حتى أتوصل بحول الله ، إلى تحقيق نسخة من هذا التلخيص ونشرها .

ولذلك يلوح بادىء ذي بدء أن ردود المبرد غير مستوفاة ، بدليل أن كل رد من ردوده معقب برد ابن ولاد عليه ، حتى أن الملخص ، ابن الحاج ، لما ذكر اعتراض المبرد على سيبويه ادخال حذف تاء التأنيث في مبحث الترخيم لأنه كله نكرة قال : « وفساد قوله هنا واضح لا يحتاج فيه إلى ما ذكره ابن ولاد » ولما أورد اعتراض المبرد على سيبويه في استشهاده على أن « يهود » مؤنث ولذلك منع من الصرف ، قال عقبه : « ولم يردّ عليه و (ابن ولاد) بأكثر من أن بين أنه لا أثر للعلة الثالثة وقد استقلت الاثنتان » . والأقرب ان ابن ولاد لم يتناول جميع الردود ، وانما أخذ ما وجد له مدفعاً منها ، أو وجد فيه مساغاً لنكتة ، كقوله مرة بعد الزام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المبرد سيبويه في لبيك أن يقال لباك لأنه قرنها بسلام عليك (١) : « لا يليق مثل هذا بمنصب أبي العباس » .

والذي يؤيد هـذا الاستظهار أن كثيراً من النقود التي هي تخطئة صريحة لسيبويه ، ورد منقولاً في بعض شروح الكتاب ، أو كتاب الكامل للمبرد ، أو كتب أخرى ، ومع ذلك فإنه لا يوجد في التلخيص الذي بين أيدينا ، من ذلك ما نقل في تفسير القرطبي (٢) عن ابن النحاس من اعتراض المبرد على قول سيبويه في قوله تعالى « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » أنه بمعنى تسلماً منكم لا خير ولا شر بيننا وبينكم : « أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة » .

هذا مع أن المفروض أن المبرد لما انتصب يضع كتاباً في الرد على سيبويه قد استقصى كل ما له من خلاف وتخطئة ، وتتبع كتاب سيبويه تتبع استيفاء ، وهو الذي كان تام القيام عليه فلا يصح أن يكون للمبرد اعتراض على سيبويه ذكره هو بنفسه في الكامل ، أو نقل عنه في الكتب ، غير مدرج في كتابه المصنف لجمع تلك الردود .

فالذي نستخلصه من هذا هو ان الذي كان بين يدي ابن الحاج يلخص منه ، انما هو كتاب ابن ولاد ، ولم يكن لديه كتاب المبرد ، فلم يكن ينظر إلا إلى ما أورده ابن ولاد في معرض رد الرد ، وانه كان ينقل كل مبحث نقلا بالمعنى لا باللفظ ، يلخص ما فيه من النقد والدفع بحسب ما يبدو له من أهمية ، وبحسب ما يكون له بالموضوع من اعتناء ، كما قال هو بنفسه في تلخيص شرح الشواهد « بحسب السآمة والنشاط » فالذي يكون عندنا ،

(١) ص ١٤٧ ج ١ باريسية .
(٢) ج ١٣ ص ٧٠ دار الكتب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حينئذ ، من كتاب المبرد هو تلخيص من تلخيص واختصار ، والذي عندنا من كتاب ابن ولاد : هو تلخيص مباشر بدون اختصار .

وهذا يفيدنا ، على كل حال ، نوع المسائل التي دار البحث حولها ، حتى ننتهي من ذلك الى تصور موقف المبرد مع سيبويه : هل كان موقف اختلاف في المذهب والأصول ، أو موقف اختلاف في البحث والتخريج ؟

فاذا صنفنا المائة وخمسة عشر مبحثاً التي اشتمل عليها الكتاب ، نجد منها أربعة وثلاثين مبحثاً متعلقاً بالقدح في الأمثلة والشواهد أو ابداء أوجه في تخريجها غير الذي خرج عليه سيبويه .

وتسعة وثلاثين مبحثاً متعلقاً بالتوجيه والتعليل والاحتجاج وما يلزم أدلة سيبويه من لوازم غير صحيحة .

وخمسة عشر مبحثاً متعلقاً بانتقاد التعبير أو فساد الترتيب أو تناقض الكلام وثمانية مباحث تتعلق بالقدح في قياس أو فساد تنظير .

وأربعة مباحث تتعلق بالمخالفة في اختيار وجه من وجهين أو وجوه جائزة . وخمسة عشر مبحثاً تتعلق بالأحكام النحوية بما يشمل الخلاف في الجواز والمنع ، والخلاف في اثبات لغة وإنكارها ، والخلاف في الصرف والمنع .

وهذا يوضح لنا أن نسبة الخلاف في الأحكام النحوية من جملة ما ذكر لنا من خلاف المبرد مع سيبويه ، نسبة ضئيلة جداً ، لأنها خمسة عشر في مقابلة مائة ، زيادة على أن منها التافه الجزئي الذي لايكاد يؤبه للخلاف فيه ، ومنها ماكان اختلاف المبرد مع سيبويه فيه تبعاً لاختلاف غيره ، من قبل ، من أيمة البصريين مع سيبويه ، مثل الصور التي يرجع فيها المبرد ماقاله الأخفش أو الجرمي أو المازني .

وهذا ينتهي بنا إلى نتيجة موضوعية وهي أن أكثر مخالفات أبي العباس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المبرد لسيبويه إنما هي من باب الأبحاث الجدلية ، والمراجعات ، والتحقيقات التفصيلية الجزئية ، التي يسلكها مقتدٍ مع مقتدى به ، وليست من المخالفات الأصلية ، والمناظرات المذهبية ، التي يسلكها ذو مذهب مع ذي مذهب مباين له . فلا يصح أن يقال في المبرد : إنه ذو مذهب نحوي ، وإنما هو أحد أعلام البصرة ، القائمين بدراسة المذهب وبحثه ، وتحقيق كتابه الذي هو كتاب سيبويه . ولم يفتح المبرد بذلك طريقاً جديداً في النحو البصري لأنه درج على مسلك مشى فيه من قبله المتقدمون من أتباع سيبويه وشراح كتابه .

محمد الفاضل ابن عاشور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net